

"بيت الحرير" لعلاء خالد : محاور رمزية وبنية سردية متفردة

مصطفى رياض

يشير عنوان رواية علاء خالد "بيت الحرير" لمحاور رئيسية ورمزية عميقة داخل العمل السردى، فهو يتجاوز كونه مجرد عنوان ليصبح استعارة مكثفة للعالم الداخلى للشخصيات، وآليات دفاعها، وطبيعة الواقع الذى تنسجه. يعكس هذا "البيت الحريرى" الحالة النفسية المعقدة للشخصية المحورية "دولت"، إذ تبنيه حول نفسها كآلية دفاعية. إنه استعارة لعزلتها العاطفية وهشاشتها، وشبكة الأكاذيب والتخيلات التى تنسجها للتكيف مع الواقع القاسى. "يخرج الحرير من فم دولت ليدور حول جسدها المتكور فى وضع الجنين، خيطاً رفيعاً واهناً يتلوه خيط آخر، فى دورات متعاقبة من خيوط الحرير التى تلتف وتتشابك وتتقاطع حولها، وتتداخل مسارات النجوم، لتضغط على جسدها، فيزداد انكماشاً واضمحلالاً."

العزلة، الهشاشة، وطبيعة الخيال

يدل "بيت الحرير" على عزلة دولت التى فرضتها على نفسها، وانعزالها عن قسوة العالم الخارجى وما يكبدها من آلام، وبخاصة ما اتصل منها بالثورة وصدماتها الشخصية. "داخل هذه المجرة الحريية المعزولة تتعاقب عليها دورات البعث، والقمر، والشوكولاتة باللبن، والبكاء، واللذة. يقل الضوء يوماً بعد يوم، خيطاً بعد خيط، حبيباً بعد حبيب، موتاً بعد موت، وكذبة بعد أخرى." إنها تبحث عن الضوء فقط بعد أن تكون قد أغلقت نفسها تماماً داخل بيتها

الحريري، الأمر الذي يشير إلى حاجتها العميقة إلى الأمان قبل أن تتمكن حتى من إدراك إمكان الاتصال الخارجي.

ويتجلى المرور إلى الهشاشة والزوال في طبيعة الحرير نفسه الذي يتسم بالرقّة وسهولة التمزق، الأمر الذي يعكس هشاشة دولت المتأصلة على الرغم من قوتها الظاهرة والشرنقة التي تبنيها حول نفسها. يذكر الراوي أن الشرنقة "هشة في ظاهرها سريعة الزوال"، ويمكن أن يتحطم وهم الأمان الذي يوفره "بيت الحرير" بسهولة، عندما يتلامس مع شيء "صلب". ترتبط خيوط الحرير صراحةً بالكاذب دولت وخيالها، الأمر الذي يشير إلى أن "بيتها" مبني على أساس من اللاواقعية، عالم تبنيه لتفهم تجربتها. عبارة "يخرج الحرير من فم دولت" تربط المادة مباشرة بسردها الشفهي، والذي غالبًا ما يكون مزيجًا من الحقيقة والخيال. هذا الكذب الإبداعي هو وسيلة للتكيف وحماية نفسها من نقاط الضعف والمخاوف. أما الصورة المتكررة لدولت وهي "متكورة في وضع جنيني" داخل بيتها الحريري، فتستحضر رغبة في العودة إلى حالة من الأمان البدائي والبراءة، تشبه الرحم. وهذا يعزز فكرة "البيت" كملجأ واقٍ، يكاد يكون بدائيًا.

وتتميز بنية "بيت الحرير" السردية بتعقيدها وتعدد مستوياتها، الأمر الذي يعكس الأبعاد النفسية والفلسفية العميقة التي تتناولها الرواية. لا تعتمد الرواية على خط زمني واحد ومستقيم، بل تتشابك فيها الأزمنة ووجهات النظر، ويستخدم الراوي تقنيات سردية متنوعة لتعميق تجربة القارئ.

تتضح السمة الأبرز للبنية السردية من خلال تعدد الأصوات التي تروي الأحداث. ننقل بين منظور "دولت" ومنظور "محسن الحكيم". هذا التناوب بين الساردين لا يقتصر على تقديم الأحداث من زوايا مختلفة فحسب، بل يكشف أيضًا عن التباين في فهم الشخصيات لذواتها وللآخرين وللعلاقات التي تجمعهم. يعبر صوت دولت عن عالم داخلي معقد، يتسم بالهشاشة، والكذب الخلاق، والبحث عن الأمان. يومياتها على مدونة "التمبلر" تقدم نافذة مباشرة على

هواجسها، مشاعرها الجامحة، وتصوراتها الخاصة للعلاقات والأحداث. هذا الجزء من السرد يميل إلى الذاتية الشديدة والتدفق الحر للأفكار. في المقابل، يقدم صوت محسن الحكيم منظورًا أكثر تحليلية وتأملاً، فهو سارد يحاول فك شفرات دولت وعالمها، ويكشف عن تأثيره بها رغم محاولاته للحفاظ على مسافة. سرده يكشف عن صراعاته الداخلية أيضًا، خاصة فيما يتعلق بعلاقته بزوجته "سنا" وبمفهومه عن الحب والشيخوخة.

تعتمد الرواية بشكل كبير على السرد غير الخطي. فبدلاً من التقدم الزمني المتسلسل، تتداخل الأحداث الماضية بالحاضر، وتكرر الذكريات والمواقف مع كل سرد لتعميق الفهم وتكشف عن طبقات جديدة من المعنى. على سبيل المثال، تعود دولت بذاكرتها إلى طفولتها وعلاقتها بوالدتها ووالدها وشقيقتها ميادة مرارًا. هذا التشابك الزمني يخدم الغوص في تعقيدات الشخصيات وكيف تشكلت هواجسهم ومشاعرهم بفعل الماضي. كما أن تجارب الانتحار لدى دولت متكررة، الأمر الذي يشير إلى طبيعة دورية لبعض صراعاتها.

وتُعد البنية السردية غنية بالرمزية التي تتجاوز الأحداث الظاهرية. "بيت الحرير" نفسه هو استعارة محورية تعبر عن عزلة دولت وهشاشتها. كذلك، "الفقاعة" ترمز إلى العوالم الداخلية التي تعيش فيها الشخصيات، وكيف تشكلهم وتحميهم، وأحيانًا تعيقهم. "الخفافيش" و"الدمى" أيضًا رموز لحالات نفسية معينة أو أدوار تلعبها الشخصيات. هذه الرمزية تضيف عمقًا فلسفيًا على السرد.

وتؤدي الحوارات الداخلية واليوميات المكتوبة على "التمبلر" دورًا أساسيًا في بناء الشخصيات والكشف عن دوافعها وأفكارها السرية. هذه التقنية تسمح للراوي (خاصة دولت) بالتعبير عن نفسيهما بحرية، وتقديم تأويلاتهما الخاصة للأحداث، حتى لو كانت متناقضة مع الواقع الظاهري. هذه اليوميات بمثابة "قدس أقداس أسرارها" وتظهر التداخل بين الحقيقة والخيال في حياة الشخصيات. كما أنَّ تقسيم النص إلى مقاطع قصيرة تحمل عناوين فرعية ("غرام

الأطفال"، "جناحان لم ينبتا"، "الابن المفقود"، "الفقاعة" ... إلخ) يعطي السرد إيقاعًا متقطعًا ويعزز من سمة التعددية. كل عنوان بمثابة نافذة على جزء من حياة الشخصيات أو موضوع معين، الأمر الذي يسهل على القارئ تتبع الخيوط المتشابكة دون أن يفقده في تعقيدات السرد. هذه العناوين تعمل كعلامات إرشادية في متاهة الأحداث والمشاعر.

ويتجاوز النثر في "بيت الحرير" مجرد السرد الإخباري ليلامس أفق الشاعرية، محوّلًا اللغة إلى أداة للتعبير عن العوالم الداخلية المعقدة للشخصيات وتجلياتها الحسية والفلسفية. ويستخدم الكاتب لغة غنية بالصور الحسية والاستعارات التي تضيف على السرد بعدًا شاعريًا. فالوصف لا يكتفي بالجانب المادي، بل يتعداه إلى الجانب النفسي والرمزي. "كان العصور الداخلي الذي يسري في جسم دولت خليطًا من الحقيقة والخيال" تفتتح السرد بصورة شعرية عن امتزاج الواقع بالخيال داخل الشخصية. صورة "بيت الحرير" نفسه، بما يحمله من دلالات للشرنقة والعزلة والهشاشة، هي استعارة مركزية تمنح الرواية بعدًا شاعريًا عميقًا. وصف "شجرة العيون" التي ترمز للمراقبة الداخلية والخارجية، أو "هرم الحب المقلوب" الذي يعكس العلاقات المعقدة، كلها صور تزيد النثر شاعرية وتأملية. على سبيل المثال، يمتزج الوصف الحسي الدقيق للمشهد العائلي في "أرى شعيراته وعروقه وقد طففت على السطح، كنا نضع كرسيًا داخل البانيو ونقف من حولها، ونتحمم جميعًا. كانت أمي تحب هذه اللحظات السعيدة التي نقف فيها ثلاثتنا تحت الدش والمياه تغمر شعورنا وأجسادنا، مع الغناء الحزين الذي يخرج مني" بلحظات حميمية وشجن خفي، مع إشارة إلى الغناء الحزين الذي يضيف لمسة شعرية.

ولا يكتفي المؤلف بتوظيف النثر لوصف المشاعر، بل يعيد إنتاجها وتكثيفها، الأمر الذي يجعل القارئ يعيش التجربة الانفعالية للشخصيات. "شعرت بأنها كانت أنانية في توزيع مقتنيات هذه الشخصية، وأنها أخذت معها كل الأشياء الجميلة فيها، وأهمها هذا الصوت الداخلي،

وتركت لي الأشياء والصفات العادية" يكشف عن ألم نفسي عميق وشعور بالنقص بلغة تتجاوز الوصف المباشر. عندما تصف دولت شعورها بالدم الغريب الذي يسري في جسمها، أو شعورها بأن شخصًا آخر يعيش بداخلها ويتحرش بها، فإنها تعبر عن حالة نفسية شديدة الاضطراب بلغة مكثفة وشاعرية. التعبيرات عن الألم والفقد والموت ليست مجرد أحداث، بل هي تجارب حسية تصف "رائحة المطهرات والأدوية واحتراق الشعر بالإشعاع" أو "المخدر الذي يسكن ألمها وخوفها من الموت قليلًا، كأنها تضع كل يوم نقطة من إكسير الموت مع كوب العصير الذي تتناوله صباحًا".

أضف إلى ذلك ما بذله المؤلف من توظيف للمفارقة بشكل شاعري للكشف عن تعقيدات الحياة والنفس البشرية. "ربما كانت الثورة هي السبب في بعث هذه المشاهد القديمة، والدور العظيم للحب وأيضًا الدور العظيم والقديم للذنب، بعد أن فقدت الثورة، الأمل في بعث المستقبل، وأوقفت كل نشاطها على أدوار آتية من الحياة الماضية" هذا الربط بين الثورة (التي يفترض أن تدفع للمستقبل) وإعادة إحياء أدوار الماضي هو مفارقة ذات طابع شعري. "كانت الصدمات المجانية التي اتسمت بها مرحلة الثورة تحدث خارج دوائر المصالح هذه قليلون من كانوا على استعداد للخسارة، وربما الثورة نفسها حدثت في أرض خلاء بعيدًا بمسافة مانعة عن أن تهدد المصالح الشخصية لأصحاب وأصحاب النفوذ في البلد" هنا المفارقة بين "الصدمات المجانية" و"المصالح الشخصية" تمنح الجملة بعدًا شاعريًا نقديًا. ويتحول النثر إلى فضاء للتساؤلات الوجودية والفلسفية، الأمر الذي يمنحه عمقًا وتأملًا. تساؤلات محسن عن "العمر الذي جاوز الخط الأحمر لتذوق عصارة الحب أو آلامه" أو تساؤله "هل هناك شغف لا يأخذ شكل الحب؟" ترفع النثر إلى مستوى شعري تأملي. محمود الذي "له صمت غريب، كأن المفردات تسبح في فضاء واسع، ولا تتقابل لتكون جملة" يقدم وصفًا شاعريًا عميقًا للصمت كعالم داخلي. وعلى الرغم من تعقيد الأفكار، يتميز النثر

بسلاسة وإيقاع داخلي يجعل القراءة متدفقة. الجمل ليست جافة أو تقريرية، بل تتسم بتدفق يعكس تدفق الوعي والمشاعر. الحوارات، سواء الداخلية أو المباشرة، غالبًا ما تكون ذات طابع "ارتجالي" الأمر الذي يضفي عليها حيوية وتلقائية فنية تشبه الشعر المنثور.

وجدير بالذكر أن المؤلف يبرع في مزج ما يسرد من أحداث بالمشاعر القوية التي تثيرها هذه الأحداث. فعلى سبيل المثال في فصل "جناحان لم ينبتا" تحكي دولت عن لقاءها الأول بمحسن الحكيم في إحدى الندوات. وتصف تجربتها في السجن الانفرادي بمنزل والدها خلال الثورة، وتذكر أن والدها كان يغار من حالتها الثورية. بعد هذه التجربة، تصف حياتها بعد السجن الانفرادي وتأثرها بغياب والدتها وسفر أختها ميادة. كما تذكر سلوك والدها البخيل وتركها للحجاب بعد الثورة. يتخلل ذلك السرد للأحداث والذكريات وصف المؤلف للمشاعر التي تثيرها فهي تنقم على جيل محسن الحكيم، وتغضب لحبسها، وتعبر عن رغبة في التحرر والاستقلال، كما تشعر بالخوف والارتباك من الظهور بغير حجاب.

إن هذا النوع من الأدب، الذي يجمع بين السرد المتعدد الأصوات، واللغة الشاعرية المكثفة، وتشابك الأزمنة، والتحليل النفسي العميق للشخصيات، له سوابق وأصول قوية في الإبداع السردى العربى الحديث والمعاصر، وإن كان كل كاتب يضيف بصمته الخاصة. هذا النمط ظاهر في أعمال عديد من الكتاب العرب الذين جابوا العالم مسلحين بالرمز والفكر الفلسفي، دامجين للواقعي بالمتخيل، ومبتكرين لعوالم سردية تتداخل فيها الأحلام والهواجس مع الأحداث اليومية، وهو ما يظهر جليًا في "بيت الحرير".

كذلك فإن التحليل النفسي المعقد للشخصيات، والكشف عن دوافعها وصراعاتها الداخلية، ليس جديدًا في الرواية العربية. لقد برع فيه أدباء مثل نجيب محفوظ في بعض أعماله المتأخرة، والطيب صالح في "موسم الهجرة إلى الشمال" الذي يغوص في تعقيدات الهوية والصراع النفسي. "بيت الحرير" تمضي على هذا النهج عبر استكشافها المكثف لهواجس "دولت"

وعلاقتها المتشابكة مع والديها وحبيبها محسن ومصعب. كما أنَّ في العقود الأخيرة انتشر استخدام تقنيات سردية غير تقليدية لكسر رتابة السرد الخطي. فتعدد الأصوات، واستخدام الرسائل، واليوميات (كما في يوميات التمبلر لدولت)، وتناوب وجهات النظر، كلها تقنيات استخدمها روائيون عرب لإثراء السرد وتقديم رؤى أكثر شمولية وتعقيداً. هذه التقنيات تتيح للكاتب استكشاف الواقع من زوايا متعددة وتعميق التجربة النفسية للشخصيات، مثل ما يحدث بين دولت ومحسن في تبادل الأدوار السردية. كذلك نرى في استخدام الثورة كخلفية للأحداث وتأثيرها على الأفراد وتحولاتهم النفسية والاجتماعية هي سمة واضحة في "بيت الحرير". هذا الربط بين العام (الثورة) والخاص (الحياة النفسية للشخصيات) حاضر بقوة في الرواية العربية الحديثة التي تناولت أحداثاً سياسية واجتماعية كبرى، وكيف انعكست على وعي الأفراد ووجودهم. ولذلك يمثل التوجه الأدبي الذي تتجلى سماته في "بيت الحرير" جزءاً لا يتجزأ من التطورات الحداثية في مصر والمنطقة العربية، والتي بدأت تتبلور منذ منتصف القرن العشرين وازدادت تسارعاً في العقود الأخيرة.

وبشكل عام فقد شهد التطور الحداثي إدراكاً من قبل الروائيين مفاده أن الواقع أكثر تعقيداً من مجرد سطح مرئي، وأن النفس البشرية هي أيضاً مساحة خصبة للاستكشاف. هذا أدى إلى التخلي التدريجي عن السرد الخطي البسيط والاتجاه نحو الواقعية النفسية التي تغوص في أعماق الشخصيات ودوافعها اللاواعية، والواقعية السحرية والرمزية التي تمزج الواقعي بالخيالي، مستلهمة التراث العربي الغني بالخيال والرمز. ومع انتشار حركة الترجمة والانفتاح الثقافي، تأثر الأدباء العرب بالمدارس الأدبية الغربية مثل تيار الوعي، والوجودية، وما بعد الحداثة. وبالتالي يعكس تعدد الأصوات ووجهات النظر، والسرد غير الخطي الرغبة في تقديم رؤية أكثر شمولية وتعقيداً للواقع وتجنب الصوت الواحد المطلق.

وقد شهدت مصر والمنطقة العربية تحولات سياسية واجتماعية هائلة. الأدب الحداثي لم يكتف بتسجيل هذه الأحداث، بل حاول استكشاف تأثيرها العميق على النفس الفردية والمجتمع. في "بيت الحرير"، الثورة ليست مجرد خلفية، بل هي محفز للتحويلات النفسية لدولت ومحسن، وهذا الربط بين التجربة السياسية الكبرى والتجربة الفردية الحميمة هو سمة مميزة للأدب الحداثي. كما أن التركيز على صوت المرأة وصراعاتها مع القيود الاجتماعية يعكس تزايد الوعي بقضايا النوع الاجتماعي وتمكين المرأة في المجتمع العربي.

أما اللغة في الأدب الحداثي، فلم تعد مجرد وسيلة لوصف الأحداث، بل أصبحت غاية في ذاتها، أداة للتعبير عن الجمالية والعمق الفلسفي. شاعرية النثر والابتعاد عن اللغة التقريرية نحو لغة غنية بالصور والاستعارات يعكس تطوراً في الوعي الجمالي للغة.

في المحصلة، ينجح الكاتب في "بيت الحرير" في خلق نثر يتجاوز وظيفته السردية، ليصبح هو ذاته تعبيراً فنياً عن الشجن الإنساني، وتقلبات النفس، وتداخل الحقيقة والخيال. هذا النثر الشاعري لا يقدم القصة فحسب، بل يدعو القارئ للانغماس في التجربة الحسية والوجدانية والفلسفية للشخصيات. "بيت الحرير" يندرج ضمن تيار واسع ومعقد في الأدب السردى العربى الحديث والمعاصر، يجمع بين التجريب فى البنية السردية، والعمق النفسى، واللغة الشاعرية، لتقديم رؤية فنية معقدة للعالم والإنسان، ويعكس مرحلة نضج فى السرد العربى، حيث تتشابك التجربة الفردية مع التحولات المجتمعية الكبرى، وتُوظف التقنيات السردية المعقدة واللغة الشاعرية لتقديم رؤى عميقة ومتعددة الأبعاد للوجود الإنسانى فى سياق عربى معاصر.